# الباب التاسع

## التربية فى القرن الثامن عشر

### وصف الاحوال الاجتماعية فى ذلك العصر

فى أواخر القرن السابع عشر، وكذلك فى أكثر القرن الذى تلاه، ساد البلاد حركة دينية ظاهرية، فأخذ الكتاب والفلاسفة يبذلون الوسع فى إعلاء شأن الكثلكة، وينفقون بلاغتهم فى تمجيد الدين، فامتلأت كتب النثر بالآداب الدينية، وفاضت بها أحاديث الأندية، وأخذ الناس يراعون النظم الكنسية أشد المراعاة، غير أن هذا الغلو فى الدين لم يكن منبعثًا عن عقيدة راسخة فى النفس، ولا مصحوبًا بشىء من الإخلاص، وإنما كان محض رياء يشف عما تحته من فجور ودهاء، وقد دعا الناس إلى هذا النفاق رغبتُهم فى التقرب والزلفى من الملوك الذين كانوا فى ذلك الوقت حماة الكنيسة يعاضدونها، ويحاربون من خرج عليها أوحاد عن تقاليدها المألوفة.

لم يكن ذلك كلَّ ما حل بالبلاد من ضروب الفساد، فقد طغى الملوكُ واستبدوا بالرعية وقيدوا حرية الأفراد فى كل وجه من وجوه الحياة، فلم يتركوا لهم سياسة ولا دينا ولا فكراً ولا عملاً إلاّ رسموا لهم فيه خططًا خاصة، قيدوهم بها تقييداً وألزموهم باتباعها إلزامًا.

### محاربة الاستبداد

ظل الناس يرسفون فى أغلال الاستبداد أزمانًا، ويعانون من جوره ما قصم ظهورهم، وملك عليهم أمورهم، إلاّ أن بقاء الحال من المحال، فقد كانت حياة هذا الاستبداد معقودة بخلو البلاد من الزعماء الذين ملئوا غيرة وحماسة، وأشربوا فى قلوبهم الحرية والصراحة فى الفكر والقول، ولذلك حالت الأحوال فى القرن الثامن عشر حين بَغَتَ

الملوكَ ورجالَ الحكم فى البلاد رجالٌ عشقوا الحرية عشقًا ، ومقتوا سيطرة الفرد مقتًا ، وهان عليهم بذل النفس فى سبيل تحرير الفكر وفك أغلاله ، فنادوا جهاراً بمبادئهم ، وطعنوا على التقاليد السائدة فى أوقاتهم ، وثاروا ثورة نزعوا بها من أعناقهم أغلال الاستبداد ، وألقَوْا عن كواهلهم أثقال السيطرة المطلقة ، ودَعَوْا إلى التسامح فى الدين والحرية فى التفكير ، فارتاحت نفوس القوم الى هذه الحركة المباركة ، وناصروها فى كل مكان ، وقد انقسمت هذه الحركة من مبدئها الى حركتين : —

الأولى : الحركة التعقلية التى تعلى من شأن العقل وتدعو الى الثقة به والاستناد اليه فى كل شأن من شئون الحياة ، وقائدها « فُلْتِير » ( ١٦٩٤ — ١٧٧٨ )

الثانية : الحركة الطبعية التى تجعل للعواطف وهوى النفوس المحل الأول ، وتعدها الأساسَ الصحيحَ الذى يجب أن تقوم عليه شئون التربية والاجتماع ، وقائدها « رُوسو » ( ١٧١٢ — ١٧٧٨ ) .

والحركتان و إن اتفقتا فى كثير من الوجوه تختلفان من وجوه أخرى نفصلها فيما يأتى :

(١) كانت الحركة الأولى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، تصرف أكثر جهدها فى الطعن على الكنيسة والعقائد الدينية — أما الحركة الثانية فى النصف الثانى من ذلك القرن ، فقد كان نقدها وقدحها موجهين إلى مثالب السياسة والحياة الاجتماعية .

(٢) كان الغرض من الحركة الأولى ينحصر فى القضاء على المساوئ والمخازى السائدة فى زمنها ، أما الحركة الثانية فقد كانت ترمى فوق ذلك إلى وضع نظام يكون مثلاً أعلى للحياة الاجتماعية .

(٣) كانت الحركة الأولى تمجد من شأن العقل وتدعو إلى الثقة به فى شئون الدين والدنيا . أما الحركة الثانية فقد ذهبت إلى أن العقل الانسانى كثير الزلل لا يصلح الاستناد اليه فى شئون الحياة ، وأن الوجدان والعواطف القلبية هى آثار الطبيعة الصحيحة ، وهى التى يجب أن يسترشد بهديها فى كل ما يجب من القول والعمل .

(٤) كانت الحركة الأولى حركة أشراف امتازوا بثرائهم ومواهبهم العقلية ، فعُنُوا بأنفسهم كل العناية . وعملوا على نقل السيطرة من أيدى رجال الدين إلى رجال العلم

والذكاء ، وتركوا سائر الشعب يتقلب فى فراش الذل والاستعباد . أما الحركة الثانية فقد كانت تعمل على إسعاد العامة ، ولا تدخر وسعًا فى النظر فى شئونهم و إصلاح أحوالهم.

( ٥ ) كان ڤلتير زعيم الحركة الأولى ، وروسو قائد الثانية . ومن قرأ تاريخ الرجلين عرف السر فى اختلافهما وذهابهما مذهبين مختلفين ، فقد كان كلاهما يمثل طرفًا من الحياة مناقضًا للطرف الذى يمثله صاحبه . كان ڤلتير غنيًا ومن طائفة الأمراء والأشراف فى حين كان روسو فقيراً ومن عامة الشعب . وكان «ڤلتير» قليل العطف على البائسين والفقراء فى حين كان « روسو » نصيرهم ، يرثى لحالهم ، و يعمل على إسعادهم ، لأنه كان منهم . وكان « ڤلتير » ممتازاً بقوة ذكائه ، وغزارة علمه ، ورجاحة عقله ، يرى وجوب الثقة بالعقل والاعتماد عليه ، فى حين كان « روسو » منقاداً لعواطفه ، مسوقًا بوجدانه ، يرى أن استرشاد الانسان بشعوره القلبى أفضل له من الثقة بعقله . قال بعض المؤرخين ( إذا كان السر فى عظمة ڤلتير أنه كان يجهر بما يفكر فيه الناس جميعًا ، فإن السر فى عظمة روسو أنه كان يجهر بما يشعر به الناس جميعًا ) .

( ٦ ) بقى هناك فرق سادس بين الحركتين يظهر فى موقف كل من الزعيمين حيال الدين . فأما ڤلتير فملحد لا يرضى بدين ، وقد ذهب إلى أن الأديان جميعها أنواع من المكر والخداع يأتى بها القساوسة والرهبان ، ويقصدون منها تضليل العامة و إخضاعهم لسيطرتهم الباطلة . أما روسو فعلى العكس من ذلك له دين يسير على هداه ، وقد أبى أن يكون ملحداً كصاحبه ، غير أنه يرفض المعتقدات الكنسية القديمة ، و يعدها خرافات وأباطيل ، وقد وضع دينًا سماه الدين الطبعى جمع فيه آداب المسيحية الصحيحة ، وأعرض فيه كل الإعراض عما حوته الأديان من المعجزات وخوارق العادات .

## التربية الطبعية

يراد بالتربية الطبعية نوع من التربية يدعو إلى أخذ الطفل بما يوافق طبائعه ويلائم ميوله ورغباته ، ويحث على تشجيع غرائزه و إعطائه أكبر نصيب مستطاع من الحرية ، و يعمل على تمجيد الطبيعة وتقوية صلة النشء بها و بما حوته من حيوان ونبات وجماد .

ومن أكبر زعماء هذه التربية روسو و بزْداو ، ولنترجم لكل منهما ترجمة تقفك على آرائه ومبادئه .

## ( ١ ) جان جاك روسو

بطل من أبطال الحرية ، وزعيم من زعماء الدعوة إلى المساواة ، وعامل من عوامل الثورة الفرنسية ، و إمام عظيم من أئمة التربيـة ، نشأ فقيراً ، وعاش فقيراً ، وظل الى سن الأربعين وهو على مضض من ترف الأغنياء واستئثارهم بالسيطرة . ولما غلت مراجل حقده عليهم وضاق ذرعًا باحتمال ضغنه ، ثار ثورته المشهورة ، وقام قيامته المعروفة فى وجه الترف . فدعا الى المساواة ، ونادى بالرجوع الى الحالة الطبعية ، فكان نداؤه حارًّا ارتاع لقوته المترفون ، وتأثر به نظام الملك والسياسة والاجتماع ، فلا غرو أن أصبح بذلك بطلاً من أبطال التاريخ ، ودعامة من دعائم الإصلاح . قال نابليون : « لولا رُوسُو لمـا قامت الثورة الفرنسية التى تغير لها نظام الملك ، واهتزت من أجلها عروش الممالك فى المشارق والمغارب » .

أما التربية فقد شهدت من آثاره وأعماله ما لم تر مثله على أيدي المربين قبله أو بعده ، وله فيها آراء صائبة وأقوال مأثورة مشهورة ، وكتبٌ ورسائل سيأتى لك بيانها مسهبًا .

مولده : ولد روسو سنة ١٧١٢ بمدينة «جنيف» من أعمال سويسرا ، وكانت فى ذلك العصر مدينة العلم ، وميدان المفكرين ، وعُش المصلحين ، فيها للآداب العالية دولة ، وللحياة الفاضلة والأخلاق الرفيعة صولة ، حكومة حرة ، وفكر مطلق ، وعيشة بدوية . أما باريس – وهى موطنه الثانى وعشه الذى انتقل اليه فيما بعد – فقد كانت على النقيض من ذلك ، كانت بلدة مترفة مترعة بالملاهى ، قد فشت فيها الأخلاق الفاسدة . وعم أهلها الرياء والنفاق ، واستبد فيها الملوك والأشراف استبداداً ، وأرهقوا العامة والسوقة إرهاقًا .

ولد من أبوين كانا من متوسطى الناس حالاً هما « اسحق روسو » ، وكان صانع ساعات ومعلم رقص ؛ و « سوزان برنار » ، وكانت جميلة أديبة مشغوفة بالموسيقى ، وقد ورث هذا الوليد صفات أبويه كاملة ، فورث عن أبيه الخيال الشارد وخفة الروح والميل الى الكسل والاندفاع فى حب الشهوات وقلة الاعتداد بالفضائل ، وورث عن أمه الطبع الدنف ، والوجدان القوى ، والعواطف الرقيقة ، والحياء الشديد .

تربيته : قام بتربيته فى أول أمره والده إسحق ، فعلمه القراءة فى السادسة من عمره ، إلاّ أنه لم يتوخ أصلح الكتب للمطالعة ، فأقبل به على قراءة الروايات والأقاصيص الخيالية ، فكان ذلك سبباً من الأسباب التى قوّت فى الغلام خياله الشارد ، وأبعدته عن الوقوف عند الحقائق ، ثم انتقلت تربيته بعد ذلك بقليل من يد والده الى أيدى آخرين لهم خبرة أوسع بأساليب التعليم ، إلاّ أن العناية به كانت قليلة ، فلم تنجع فى تغيير طبائعه وخلائقه التى تكونت فى السنوات الأولى .

ولما بلغ الثانية عشرة أرسله أهلوه وذوو قرابتــه الى صناع مختلفين ، ليتخرج فى صناعاتهم ومهنهم ، فلم يصبر على صناعة منها لطيشه وعنف معلميه ، فقد أرسله خاله فى بادئ الأمر الى أحد الكتاب العموميين ليأخذ عنه الحرفة ، فأظهر فيها من التباطؤ والبلادة ما اضطر معلمه الى طرده ، فأرسله مرة أخرى الى نقاش ليأخذ عنه حرفة النقش ، فأحس الغلام مَيلاً الى هذه الحرفة ، إلاّ أن معلمه كان فظاً غليظاً يرى إرهاق الأحداث بأنواع العقاب خير وسيلة لتعليمهم ، ولذلك أنزل بالوليــد من العذاب ما لم يطقه ، فكرّه اليه الصناعة ودعاه الى الفرار والهرب منه . ثم تنقل فى صناعات أخرى وخدمات كثيرة ، وفى كل ذلك كان مختلط با خوان السوء ورفاق الشر ، فانتقلت اليه سوءاتهم ، ولم يستفد من تجاريبه هذه سوى انحطاط الآداب ، وفساد الأخلاق ، ولم يجن منها على حسب اعترافه سوى الكسل والخيانة ، والكذب والسرقة ، والجبن وغيرها من المعايب والمخازى التى بقيت معه الى حَدٍّ ما جميع أيامه .

بقى چان چاك فى مدينــة جنيف حتى بلغ السادسة عشرة من عمره ، وكان طول إقامته بها يخرج الى الغابات والحقول فيملأ ناظريه من مشاهد الطبيعة التى أُغرم بها إغرامًا ، حتى لقد أنساه غرامه بالطبيعة فى كثير من الأحيان أن يعود الى المدينة قبل إغلاق أبوابها ، وكثيراً ما عاد متأخراً فوجد الأبواب مغلقة فلم يستطع الدخول ، وهنا كان يلاقى من معلميه صنوف البلاء وأنواع العذاب . اتفق له مرة أن رجع من الغابة قاصداً المدينة فوجد أبوابها توصد فى وجهه ، فاغتم لذلك وحلف لارجع إلى المدينة ولا

رأى أهلها ، وغادر «جنيف» هائمًا على وجهه يضرب فى بلاد الله على غير هدى ، وكان إذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره .

## تجاربه وسوء حظه فى الحياة

ترك هذا الطريد مدينة « جنيف » وظل يتنقل من بلد الى آخر يقدر لمستقبله ، ويبحث عن عمل يكسب به قوته ، ففكر أولاً فى احتراف صناعة النقش ، إلاّ أنه لم يصادف فى ذلك نجحا ، فعرض نفسه لخدمات صغيرة حقيرة مذلة ، ومع هذا كانت الخيبة تتبعه — فى كل منزل أو حانوت يخدم فيه ، إما لسوء سلوكه وانقياده لشهواته وأهوائه ، وإما لشرود خياله وقلة صبره وعدم ثباته على حال .

فى سنة ١٧٤١ عزم على السفر الى باريس عساه أن يجد فيها حظًّا أسعد وحالاً أحسن ، فسار اليها يقطع الطريق بين بدائع الطبيعة ومشاهدها الخلابة ، ومعه دريهمات قليلة تعينه على سفره ، ورسائل توصية لأناس معروفين فى العاصمة ، وخبرة قليلة بفن الموسيقى ، ومقترحات ضئيلة بطرائق رقمها ظنها كافية لإحراز غاية عالية بين أهل الفن هناك ، وما كاد يصل إلى المدينة حتى أسرع الى تقديم رسائل التوصية وعَرْضِ مقترحاته فى رقم الموسيقى ، فلم تصادف فى المجامع العلمية قبولاً ، فعاد كاسف البال يذرف الدموع على إنفاق أوقاته سدى ، إلاّ أنه مع ذلك تمت له مودة قوم من ذوى الرأى هناك ساعدوه فى الحصول على عمل يعيش منه فى رخاء وسعة .

كان روسو فى كل أدوار حياته لا ينصرف عن القراءة والاستفادة ممن يتصل بهم اتصال خدمة أو مودة ، فنمت لذلك معارفه واتسعت مداركه ، وعظمت مقدرته العلمية والفنية ، حتى أعده ذلك للمكان الذى تبوأه فى عالم الأدب بعد ذلك ، وهيأ له السبيل للعظمة التى صادفته فى آخر حياته .

## أثر الحياة التى عاشها فى تكوين آرائه

إن السبب الذى من أجله تتبعنا حياة روسو على النحو المتقدم ، هو أنا أردنا أن نبين للقارئين كيف كانت آراؤه وأفكاره فى التربية نتيجة الحياة التى عاشها ، والتجارب

التى صادفها منـذ أيام طفولته ، فقد رأيتَ فيما مرَّ عليك كيف كان جانب الوجدان عنده يغلب جانب الفكر والتعقل ، وكيف كانت لرغباته وميوله الطبعية سيادة وسلطان عليه . وإنك لو قرأت كتبه واستقصيت مذاهبه ، لرأيت آثار هذه الحياة جلية ظاهرة فى آرائه وأفكاره . تراه دائمًا يرشد الى متابعة الوجدان والانقياد اليه ، ويدعو الى مطالعة العواطف والنزول على حكمها فى كل شأن من الشئون . كذلك كان من نتائج حياته التى عاشها ، أن جهر بأن الأفكار الدينية والخُلقية لا مكان لها فى أيام الطفولة ، وأن العقل يستفيد من مطالعة الطبيعة واجتلاء مشاهدها أكثر مما يستفيد من مطالعة الكتب وعشرة العقلاء ، وجهر أيضًا بأن نشأة القوى الإنسانية نشأة صحيحة كاملة إنما تكون بتشجيع الغرائز على إظهار آثارها ورفع العوائق التى تقطع عليهـا طريق الحرية الكاملة .

جان جاك روسو
( ١٧١٢ — ١٧٧٨ )

رسائله وكتبه :

فى سنة ١٧٤٩ رأى عرضًا فى مجلة فرنسية موضوعًا طرحه المجمع العلمى فى « ديجون » ليتنافس فيه من يطمع فى جائزته من الكتَّاب ، وقد كان الموضوع عن أثر العلوم والفنون فى حياة الانسان ، وما كاد ينتهى من قراءته حتى تاقت نفسه الى الدخول فى زمرة المتنافسين ، فدخل مملوءاً بأفكار ومعان تواردت عليه ، وذهب إلى أن العلوم والفنون أسبـاب شقاء وعوامل إفساد للإنسان ، وأنه

لاسعادة له إلا بتركها والرجوع إلى الحالة الطبيعية حالة الجهالة المطلقة، والحياة الساذجة. ولقد طعن على العلوم والفنون بأنها تزيد فى ترف الانسان زيادة تنتج الرذائل، وتضعف النفوس، وتذهب بحريتها. ولقد ضرب المثل فى ذلك بالمصريين فانهم كانوا أصحاب بأس وقوة وحرية، وما كاد العلم يسطع نوره بينهم حتى ذهبت منهم خلال الخير، وفشت فيهم ألوان الشر، وظهرت عليهم دلائل الضعف والانحلال، فأغارت عليهم الأمم المجاورة، وذهب ملكهم فيما ذهب.

ولقد كتب روسو مقاله هذا، بحرارة ثورية، وإيمان صادق، وأسلوب قوى لم يعهد مثله من قبل، فكان ذلك إلى وصفه أدواء جماعة الإنسان فى وقته، وظمإ الناس إلى مثل هذه الكتابة، من أقوى عوامل نجاحه. وما كاد مقاله ينشر حتى حاز إعجاب القارئين، ونال جائزة المجمع العلمى فى « ديجون ». وهكذا أصبح روسو فى لحظة واحدة ذا مكانة عالية بين الأدباء والكتاب الفرنسيين، وأضحى يشار إليه بالبنان فى كل مكان.

فى سنة ١٧٥٣ عرض المجمع العلمى فى ديجون مسألة ثانية للكُتَّاب، ودعاهم إلى التنافس فيها وإحراز جائزتها. ذلك أنه طلب إليهم أن يشرحوا أصول عدم المساواة بين الناس، وأن يبينوا هل يرضى القانون الطبعى بعدم المساواة؟ فكان روسو أسبق الكتاب إلى إجابة الدعوة، فتناول قلمه ووصف أحوال الاجتماع فى العصور الأولى من التاريخ وصفاً خيالياً، فاذا الناس فيها سعداء ممتعون بنعيم الجهالة، لا يشتغل بالهم طمع، ولا يفكر واحد منهم فى غيره، ثم قال ما معناه « لو أن السعادة كتبت للناس لظلوا على حالتهم الأولى بعيدين عن كل مدنيـة وترف، ولمكثوا فى أحضان الطبيعة جهلاء مستوحشين ». ومن هنا قرر أن المدنية هى أصل عدم المساواة وأنها هى التى أنتجت الشقاء الذى ينقلب فيه الانسان فى هذه الأزمان. وأصل المدنية عنده الفكر، فهو أصل البلاء وأساس المصائب.

ولقد صاح روسو فى مقاله هذا ضد الملكية صيحة مهدت السبيل للمذاهب الاشتراكية، وذهب إلى أن كل ثروة يقتنيها فرد من الناس انما هى جناية يجنيهـا على الانسانية،

ويذل بها غيره من أبناء جنسه . وقد جهر فوق ذلك بأن الحكومات لم تكن إلا أنواعاً من مظاهر الظلم والعسف ، وأن القوانين الاجتماعية كلها ظالمة غير عادلة .

أتبع روسو مقاله الثانى فى عدم المساواة بمقال سياسى خطير أسماه « العَقْد الاجتماعى » ، وأودعه من الأفكار والآراء ما أثار الحمِيَّة فى قلوب القارئين ، ومهد السبيل لأعظم ثورة فى تاريخ الفرنسيين ، وقرر فيه أن الحكومة نتيجة تعاقد بين الناس يُعْطِى فريقًا منهم حق الحكم ، ويوجب على الآخرين أن يقدموا للفريق الحاكم ما يصلح أن يكون جزاءً لخدمته ، وإذا كانت الحكومة قد قامت على اتفاق وتعاقد بين الطرفين ، فانها تنحل متى زال الوفاق .

بعد أن ظهر كتاب العقد الاجتماعى بشهرين ظهر كتابه « اميل » ، وهو أعظم كتبه خطراً وقد أودعه جميع آرائهِ ومذاهبهِ فى التعليم . وقد أحدث هذا الكتاب عصراً جديداً فى التربية وشغل أفكار المربين زمناً طويلاً فى جميع أنحاء القارة الأوربية. قيل إن الفيلسوف «كانت» الألمانى قد انكب على قراءته واستهواه ما فيهِ من الفكر السديد والرأى الناضج ، حتى لقد أنساه ذلك أن يجرى على مألوفهِ وعادتهِ فى الخروج للنزهة كل يوم .

## كتاب اميل والتربية الطبيعية

فى هذا الكتاب يشرح روسو حقيقة التربية الطبيعية[1] ، ويفصل مبادئه ومذاهبه فى تربية الأحداث تفصيلاً ، وينادى بأخذ الطفل من أبويهِ وإبعاده عن المدارس

---

(١) وردت كلمة الطبيعة فى كتاب إميل مرارا وتكراراً ، وقد استعملها روسو كما استعملها غيره من الكتاب استعمالاً غامضا ، إلاّ أنا اذا تدبرنا معانيه وتبينا أغراضه ، رأيناه قد استعملها فى معان مختلفة ؛ فتارة يريد بها ما جبل عليه الانسان من الغرائز والوجدانات والعواطف والميول ، فاذا نادى روسو بوجوب استماع الانسان لطبيعته ، فمعنى هذا أن يعمل الرجل على حسب ما يدعو اليه وجدانه وترشد اليه عواطفه ، وذلك فى رأى روسو خير له من التفكير ومطالعة العقل ، بل خير له من الرجوع الى التجارب المستفادة من المخالطة والمباشرة

وتارة يريد بالطبيعة ما فى الوجود من جماد ونبات وحيوان ؛ فاذا ذكر التربية الطبيعية الفاضلة ، فانه يريد بها تلك التربية التى تأتى من الاتصال الشديد بما فى الوجود من حيوان ونبات وجماد ، وما أودع فيه من الاسرار والقوى الكامنة والظاهرة

والجماعات ، وإسلامهِ إلى مربٍ ماهر حاذق يدخل فى قلبهِ حب الطبيعة ويقفه على أسرارها ووجوه جمالها. وقد كان روسو من عشاق الطبيعة يرى فيها من الجلال والروعة ما لا يراه غيره . ويذهب إلى أن المدن قبور للمواهب الانسانية ، ينهدم فيها بناء الجسم وتفسد فيها القوى العاقلة والأخلاق الفاضلة .

### كتاب اميل والتربية السلبية

كان للمربين ورجال الدين آراء فى طبيعة الطفل وتربيته تخالف آراء روسو كل المخالفة ، كانوا يرون أن الطفل بطبيعته شرير ، وأن الخير إنما يأتى له على يد الانسان الذى يصرف جهده فى سبيل تقويمه وتثقيفه . وقد بنوا على مذهبهم هذا أن التربية إنما وضعت لتستأصل من الطفل طبيعة الشر وجذور السوء التى خلقت معه ، وتَغْرِسَ فى مكانها طبيعةً فاضلة . فالتربية عندهم إيجابية . أما روسو فقد ذهب الى غير مذهبهم وقرر رأيه واضحًا جليًّا فى أول سطر خَطَّه فى كتابه إميل . قال: «كل شىء حين صدوره منَ الصانع جل شأنه يكون حسنًا وجميلاً ، فاذا صار الى يد الانسان أصبح سيئًا وقبيحًا » . فأنت تراه يذهب الى أن الطفل خَيِّر بطبيعته ، وأن الشر إنما يأتى له على يد الانسان . وقد بنى على مذهبه هذا أن التربية إنما وضعت لتحول بين الانسان والفساد ، ولتسير به فى طريق الخير الذى سارت فيه طبيعته حين بدء خلقه ؛ فالتربية الأولى عنده سلبية . قال : « يجب أن تكون التربية الأولى سلبية محضة ، فلا تتضمن تلقين حقيقة من الحقائق ، أو غرس فضيلة من الفضائل ، وإنما تعمل على حفظ القلب من الرذيلة والعقل من الخطأ » .

لم يرد روسو بالتربية السلبية ألاَّ تكون هناك تربية مطلقا فى السنوات الاولى من حياة الطفل كما قد يتوهم بعض الناظرين ؛ وإنما أراد أن تكون التربية الأولى مخالفة لما كان معهوداً فى زمنه . وقد أوضح فكرته هذه إيضاحًا أكثر فى رده على النقد الذى وجهه الكُتَّاب الى كتاب إميل ؛ قال : « إنى أقصد بالتربية الإيجابية تلك التى ترمى الى تكوين عقل الطفل فى غير أوان التكوين ، والتى ترمى الى تعليم الطفل واجب

الرجال ، أما التربيـة السلبية فى مذهبى فهى تلك التى تعمل على تنمية الحواس التى تعتبر أبواباً للعلم قبل أن تعمل على تلقين العلم نفسه . حقاً إنها لا تغرس فى الطفل فضيلة ولكنها تحول بينه و بين الرذيلة . كذلك لا تُدخل فى عقله حقيقة من الحقائق ولكنها تسد عليه باب الخطأ وتعصمه من الزلل . إنها تستميل الطفل الى السير فى الطريق الذي يقود الى الخير متى بلغ السن التى يستطيع فيهـا معرفة الخير و إدراك أسرار الوجود » .

## مبادئ كتاب اميل

طعن روسو فى كتابه هذا على طرق التربية المتبعة فى زمنه ، وبرهن على فسادها و بين وجوه الأخذ بمبادئه الطبعية فى تربية طفلٍ خيالىّ دعاه إميل، من ساعة ميلاده الى أن يصير رجلاً مستقلاً يعتمد على نفسه فى كل شأن من شئون الحياة . وقد قسم الكتاب الى خمسة أجزاء : الأول فى حاجات المولود وفى واجب الأمهات . الثانى فى تربية الأطفال من السنة السادسة الى الثانية عشرة . الثالث فى تربيتهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة . الرابع فى التربية الخلقية من الخامسة عشرة الى العشرين . الخامس فى تربية البنت التى يريدها لتكون زوجا لإميل فيما بعد .

( ١ ) الكتاب الأول فى تربية إميل من مبدإ مولده إلى سنته الخامسة : يتضمن هذا الكتاب طعناً شديداً على مألوف الناس فى ذلك العهد من تقييد حركات الطفل الطبعية بإلباسه المناطق والقلانس، وتدثيره بالادثرة التى تعوق حركته قليلاً أو كثيراً . وقد عاب المؤلف فيه ما جرت عليه التربية من تقييد حرية الأطفال و إخضاع غرائزهم وميولهم الطبعية ، وندَّد بحياة الأطفال فى المنازل بعيدين عن جمال الطبيعة وهوائها الطلق النقى . ورأى ألا يعاقَب الطفل على ذنب جناه فى حداثة سنه قبل أن يعرف معنى الخطأ ، وقبل أن تتولد فيه القدرة على إدراك أسباب ما ينزل به من العقاب .

ومن مبادئه المنثورة فى هذا الجزء أن ينقل الطفل بعد ولادته الى الريف ، ليعيش فى أحضان الطبيعة بعيداً عن المدنية وآثارها المفسدة للأخلاق والآداب ، وأن يسمح

بالماء الساخن والفاتر والبارد ، حتى لا يتعود ماء بدرجة حرارة خاصة ، لأن التعود فى رأيه قانون تأباه الطبيعة . وقد حث على العناية بالألعاب الرياضية والتمرينات البدنية ، فان فيها صحة الأبدان ، وفى صحة الأبدان سلامة العقول وكمال الأخلاق ؛ قال : « الجسم الضئيل الضعيف كثير الأمر والنهى ، والجسم السليم القوى كثير الطاعة والانقياد » . وقال : « الضعف مثار الشرور ومنبع الفساد ، ولن يكون الطفل شريراً حتى يكون ضعيفًا . فمن أراد أن يرى فى طفله خلقًا جميلاً وطبعًا قويًّا ، فعليه أن يتعهد بدنه بما يقويه وينميه » .

يكاد القول فى هذا الجزء يكون مقصوراً على نشأة الطفل الجسمية ، أما نشأتاه العقلية والخلقية فيرى روسو ألا يعنى بهما كثيراً فى هذا الدور من الحياة ، حتى لقد أوجب ألا يُعَلَّم الطفلُ من الألفاظ الاَّ ما يحمل اليه معانى مألوفة واضحة فى ذهنه . قال : « ان الطفل ليضره أن تكون ألفاظهُ أكثر من معانيه وأن يكون كلامه اكثر من تفكيره » .

( ٢ ) الكتاب الثانى فى تربية إميل من سنته الخامسة الى الثانية عشرة . وضع « روسو » هنا مبدأين تسير عليهما التربية فى هذا الدور : أولهما أن تكون التربية سلبية ، وثانيهما أن تأتى التربيه الخلقية عن طريق النتائج الطبعية . وبمقتضى المبدأ الأول يطعن روسو على ما كان مألوفًا فى زمنه من العناية الشديدة بتلقين الأطفال قضايا العلوم ومسائل الفنون ، وينقم من الذين يعملون فى هذا الدور على صوغ عقول الأطفال وتعليمهم اللغات الأجنبية والتاريخ وتقويم البلدان . ويرى فوق ذلك ألا يتعلم الطفل القراءة فى هذه السن ، فإنها تنغص عليه معيشته وتحرمه التمتع بأزمان طفولته .

بينا يجهر روسو بآرائه المتقدمة تراه من جهة أخرى يرفع صوته عاليًا وينادى بتربية الحواس وتمرين أعضاء البدن فى هـذا الدور فانه أليق أدوار الطفولة بذلك ، لأن الطفل فيه تشتد رغبته الى تحريك ساقيه وذراعيه ، ويكثر ميله إلى استعمال حواسه فى تعرف الأشياء وإدراك خواصها ؛ قال : « تصل الينا الحكمة والفلسفة بادئ بدء عن

طريق أيدينا وأرجلنا وحواسنا ، فاذا أردنا أن نتعلم التفكير وجب علينا أن نبدأ بتمرين أعضاء البدن ، فانها فى الحقيقة أسباب العلم ووسائل الإدراك » . ولن يكون تمرين الأعضاء سهلاً هيناً حتى يلبس إميل ملابسه قصيرة خفيفة مرسلة غير مشدودة ، وحتى يتعود احتمال الحر والبرد ، و يسير فى مختلف الأجواء عارى الرأس . وعلى المربى أن يدرب الأطفال فى السباحة والجرى والوثب ، ويمرن حواسهم جميعها ولا سيما حاستا السمع والبصر ، فيعلمهم الغناء والرسم والهندسة التكوينية ، فإن الأول يساعد على معرفة النغمات والتمييز بين نبرات الأصوات ، أما الثانى والثالث فيساعدان على تعويد الطفل الملاحظة الصادقة والنظر الصحيح .

ولما كان إميل لا يستطيع الفرار من معاشرة الناس ومخالطتهم فى هذه السن ، وجب أن يتعلم شيئاً من آداب السلوك والمعاشرة ، لا على أنها دروس تهذيبية مقصودة ، وإنما يتعلمها عرضاً و بطريق النتائج الطبعية ، فانه فى هذه السن لا يفهم النصح والارشاد . فاذا أفسد إميل شيئاً من أثاث المنزل وأمتعته ، فدعه يقاسى النتائج المرة التى تنتج عن عمله . واذا كذب عليك مرة فلا تنصحهُ ولا تعاقبهُ ، وأظهر له بعد ذلك أنك لا تثق بأخباره ، وانك أصبحت لا تعتقد صدق ما يقول وإن كان حقاً . واذا اقتلع شجرة من الحديقة ليغرس فى مكانها شجرة ورد يهواها ، فدع البستانى يجازيهِ على عمله بمثله . و بهذا يعلم إميل أن للآداب حرمةً لا تنتهك ، وأن للمعاشرين والخلطاء حقوقاً لا تستباح .

(٣) الكتاب الثالث فى تربية إميل من الثانية عشرة الى الخامسة عشرة : هذا هو دور النشأة العقلية ، وهو الدور الذى ينبغى أن تشتد فيهِ العناية بتحصيل العلم . ولما كان مداه قصيراً وكانت العلوم التى يُرغب فى تحصيلها كثيرة متنوعة ، رأى روسو ألا يعلم الطفل علماً من العلوم ما لم تكن له منفعة ظاهرة فى حياتهِ ، حتى لقد ذهب الى اكثر من ذلك ، وجهر بألا يعلم الطفل من هذه العلوم النافعة إلا ماله ميل اليه ورغبة شديدة فى تحصيله . وهو مبدأ قدَرَه المربون فى هذه الأيام حق قدره ونال على أيديهم من

المعاضدة مالم ينله فى حياة صاحبه . ولقد بنى روسو على مبدئه هذا أن أفضل العلوم التى يصح اختيارها للطفل هى العلوم الطبيعية على شريطة أن يكون تعليمها آتيـاً من ممارسة الأشياء ، ومأخوذاً عن الطبيعة ذاتهـا ، لا عن الكتب وألسنة المحاضرين والخطباء . فيجب أن يتعلم إميل بمشاهداته وتجاربه الخاصـة تأثير الحرارة والبرودة فى الأجسام الصلبة والسائلة ، حتى اذا تم له ذلك أصبح قادراً على فهم مقياس الحرارة وغيره من الآلات الكثيرة . وهنا يوازن روسو بين الطرق المألوفة فى الاستعانة على إفهام التلاميذ علمى الفلك وتقويم البلدان بالكرات والمصورات الجغرافية التى تضلل الأفهام أكثر مما تهديها ، وبين طريقته الطبيعية فى تعليم هذين العلمين بالرجوع الى تحريك رغبات الأطفال واستمالتهم إلى ملاحظة الشمس وقت شروقها ووقت غروبها فى الفصول الأربعة ، والى التأمل فى مشاهد البيئة التي يعيشون فيها

فى هذا الدور يرى روسو ألا يعلم إميل شيئاً من التاريخ أو قواعد اللغة ، وألا تستخدم الكتب فى تعليمه اللهم الا كتاب « روبنسن كروسو » فان فيه صورة كاملة من صور الحياة الطبيعية للانسان ، ومن النافع لإميل فى هـذا الدور أن يؤخذ ببعض الأعمال اليدوية كالنجارة وغيرها ، وأن يعلم صناعة من الصناعات لا رغبة فى تحصيل الصناعة فحسب ، ولكن ليذهب عنه فوق ذلك ما يتولد فى بعض الفتيان من احتقار الصناعات ، والحط من شأن القائمين بها .

(٤) الكتاب الرابع فى تربية إميل من السنة الخامسة عشرة الى العشرين : إلى هنا نال إميل حظه من تربية الجسم والعقل ، ولم يبق له إلا أن يأخذ نصيبه من تربية القلب ، وهى التربية الدينية الخلقية . نعم إن إميل إلى هذا الوقت لم يدرس تاريخاً ولا آداباً ولا نحواً ولا لغة غير لغته ، ولم يصل فى العلم الى درجة راقية ، الا أن القدر اليسير الذى حصله ، يُحسِنُ فهمه ويُجيد معرفته . أضف الى ذلك أنه قد أصبح وله عقل مضىء يهديه فى المناهج القاتمة والمسالك المظلمة .

إن أهم أعمال التربيـة إنما تبتدئ فى هذا الدور ، اذ أن إميل إلى هذا الوقت لم

يتصل بالناس اتصالاً مباشراً ، ولم يُعدد نفسه للدخول فى الجماعات ، ولم يعرف كيف يصانع بنى جنسه ، أو كيف يكون السلوك والآداب ؛ وفوق ذلك لا يعرف ربه ولا نفسه . لذلك يجب أن تكون تربيته فى هذه السن خلقية دينية حتى يدرك صلته بالناس ورابطته بخالقه .

ويجب فى التربية الخلقية ألا يركن المربى الى النصح والإرشاد فانهما لا يجديان فتيلاً ، وإنما عليه أن يسلك الطرق العملية القويمة ، فيدفع الغلام الى مخالطة الناس ومعاملتهم ، وينصب نفسه قدوة حسنة له ، ويقرأ عليه الأمثلة الطيبة من تاريخ الصالحين . ويدعوه إلى مطالعة وجدانه وعواطفه فى كل عمل يأتيهِ ، فان الوجدان منبع كثير من مكارم الأخلاق . وعليهِ أيضًا أن يستثير عواطف الرحمة والحنان فيه بدعائهِ الى زيارة المشافى والسجون وملاجئ العجزة ، وإطلاعهِ على مظاهر البؤس وصنوف البلاء التى يقاسيهـا كثير من الناس من جوع وعُرْى وآلام وأحزان ومصائب ، على شريطة ألا يكثر من ذلك وإلا أورثتهُ العادة جموداً وصلابة فيقسو قلبهُ ويضعف وجدانه .

ومن مبادئ روسو فى التربية الخلقية ألا يلقن الطفل درسًا فى الأخلاق أو يُعَلَّم شيئًا من كتاب إذا كان فى طوقهِ أن يتعلمه من طريق التجارب . ولا تظن أنهُ يرمى بذلك إلى نصرة العقيدة المخطرة التى تجنب الناس الشرور من طريق تجربتهم لها ووقوعهم فى نتائجها السيئة وان كانت قاسية ، فان مذهبهُ صريح فى أن الولد لا يسوغ له أن يجرب الشر بنفسهِ ليعلم نتيجتهُ ؛ ومما قاله فى ذلك: «لاشىء فى الآداب إلا استطاع الوليد معرفته بتجاربهِ الخاصة أو تجارب غيره ، ففى الأحوال التى تكون التجارب فيها قاسية النتائج وخيمة العواقب ، لا يجوز له أن يعالجها بنفسهِ وإنما عليهِ أن يأخذ العظة من التاريخ » .

أما التربيـة الدينية ، فقد قال فيها : « يجب ألاّ يبتدئ إميل تربيته الدينية قبل الخامسة عشرة من عمره ، أما إذا تعجل المربى وأخذ يعلمه صلته بربه ويلقنه مسائل

الدين قبل أن يبلغ هذه السن ، فإنه يبقى جميع حياته جاهلاً ربه ، ولا تكون معرفته بالعقائد الدينية إلاَّ معرفة تقليدية قاصرة لا تتعدى ألفاظاً يرددها ولا يفهم لها معنى» . وفى الحق أن الطفل قبل الخامسة عشرة من عمره لا تقوي مداركه على فهم الأسرار الإلهية ، فإذا علم شيئًا من ذلك كان علمه به ناقصاً .

( ٥ ) الكتاب الخامس فى تربية المرأة : متى بلغ إميل سن العشرين فقد وصل الى السن التى يحتاج فيها الى العشير الذى يساكنه ويقاسمه نعيم الحياة وبؤسها ، تلك هى المرأة الصالحة والزوجة الموافقة التى يأنس بعشرتها وتأنس هى بعشرته . لذلك لم يكن عجبًا أن كان الكلام فى الجزء الخامس من الكتاب مقصوراً على تربية البنت تربية تجعلها مثلاً أعلى للنساء ، وتؤهلها لأن تكون خير امرأة يبنى بها إميل فيسعد فى جوارها وتسعد هى أيضًا فى جواره . ولروسو فى هذا الموضوع آراء سقيمة ربما كانت أضعف آرائه فى التربية وأقلها قيمة ، فإنه هضم المرأة ، وقلل من نصيبها فى الحياة ، ولم يعتبرها مخلوقًا مستقلاً بذاته ، وإنما اعتبرها جزءًا مكملاً لطبيعة الرجل كأنما خلقت لإسعاده وخدمته ليس غير ، ولولا ذلك ما احتيج اليها فى الوجود . وعلى مبدئه هذا أوجب أن تراعى علاقة المرأة بالرجل فى جميع أدوار تربيتها ؛ ومن قوله فى ذلك : « يجب أن تكون تربية المرأة دائرة حول علاقتها بالرجل وصلتها به ، فعليها أن تتعلم كيف تَسُرُّه وتنفعه ، وكيف تكسب محبته وتربى أولاده ، وعليها أن تعرف كيف تخدم الطاعنين فى السن وتقوم بتسليتهم وتعليلهم » .

فتربية البنت عنده مقصورة على تخريجها فى تدبير منزلها وتربية أولادها وإسعاد زوجها فحسب ؛ وهو وان رأي وجوب العناية بتربيتها الجسمية ، لايرى الغاية من ذلك إلاّ كسب الجمال الذى يعجب الزوج ، والصحة التى تساعد على قوة النسل .

ومن مبادئه فى تربية البنت أن تتعود الطاعة وحب العمل ، وأن تتعلم الحياكة والتطريز وأشغال الإبر ، وكذلك الغناء والتوقيعَ على الآلات والرقصَ وغيرها مما يزيد فى جمالها ويُكثر من إعجاب الرجال بها . أما الفلسفة والعلوم والفنون فليس لها

أن تشتغل بشيء منها . لأنهُ لا يرى فيها القدرة على مزاولة الأعمال العقلية التى يزاولها الرجال ، وبذلك تراه قد حال بين المرأة والارتقاء الفكرى الذى جعله الله حقًّا شائعًا بين الرجال والنساء ، على أن العالم قد أخذ اليوم يسير فى طريق الاعتراف بما للمرأة من الحقوق ، وبأنها لا تقل عن الرجل فى شيء من كفايته العقلية .

### قيمة الكتاب

يصعب على الإنسان أن يعطى هـذا الكتاب حقه أو يقدره قدره حتى يتناسى الحياة السيئة التى عاشها مؤلفه ، وحتى يتجاهل ما فى الكتاب من تناقض ظاهر ، ومغالاة غير مقبولة ، وقلة ثبات فى الرأى والفكر ؛ فاذا أعرض عن ذلك رأى الكتاب غزير المـادة مملوءا علمًا وحكمة وأدبًا ، ووجد كل مثلبة فيه مصحوبة بحسنات تشفع لها ، والحسنات يذهبن السيئات . أضف الى ذلك أن الفضل فى كل انقلاب حديث فى التربية يرجع اليه ، فهو أصل الحركات العلمية والاجتماعيـة والنفسية فى التربية ، وهو الأساس الذى بنى عليه بستالوتزى وفروبل وغيرهما من أئمة التربية . لذلك كان روسو بطلَ المصلحين وشيخ الكتاب الذين كتبوا فى التربية الحديثة .

## أساس نشأة التربية فى القرن التاسع عشر

لو تأملنا مبادئ روسو فى التربية ، وأجلنا النظر فى آرائه ومذاهبه ، لاستطعنا أن نقول إنها أساس التربية الحديثة فى القرن التاسع عشر ، فروسو هو الذى جهر بفساد النظام القديم وبين مثالبه وعيوبه ، وهو الذى تنبأ بمصير التربية وطرائقها الحديثة . وهو الذى وضع الأساس لكل من الحركات المتنوعة التى ظهرت فى التربية فى القرن التاسع عشر . ولا نغالى إذا قلنا إنه الوحى الذى نفث فى صدور المصلحين الذين أتوا بعده ، فاقتفوا آثاره وانتفعوا بحكمته ، واتخذوا من أخيلته وأحلامه حقائق أخرجوها الى دائرة العمل ، فأعلوا بها منار التربية ورفعوا من شأنها .

## ( ١ ) روسو والحركة النفسية فى التربية

كان المربون قديمًا يضعون طرقًا ثابتة للتفكير والعمل ، ثم يأخذون الحدث بها جبراً وقسراً من غير أن تكون شائقة له . على أن منهم من كان يرى أن العمل لا تكون له قيمة فى التربية إلا اذا كان ثقيلاً على نفس الطفل مُبْغَضًا اليه ، فجاء روسو وقضى على كل ذلك ، وأوجب أن تتمشى التربية مع غرائز الأطفال وميولهم الطبعية ، ودعا الى العناية بدراسة الطفل وطبائعه قائلاً إنها الأساس الصحيح الذى يجب أن تقوم عليه التربية ، فالمعلم الذى يعالج تهذيب الأطفال وليست له خبرة بطبائعهم ، يسير على غير هدى فى صناعته ، وفى الغالب لا يصادف فى مهنته نجاحًا . واليك ما قاله فى مقدمة كتابه إميل : « ان كثيراً من المربين الحازمين ليخطئون مواقع التربية الصحيحة إذ يأخذون الأطفال بما يحتاج الرجال الى معرفته ، ويَغفُلون عما تستطيع عقول الأحداث فهمه وادراكه ، وانهم ليخطئون كذلك حين يتطلَّبون فى جسوم الأطفال عقول الرجال ، ولا يفكرون أصلاً فى حقيقة الطفل قبل أن يصير رجلاً » . ولقد كان لهذا النقد الصحيح الأثر الحسن فى اهتمام أئمة التربية الحديثة بالطفل ، وجعله المحور الأصلى الذى تدور عليه كل مناقشة فى التربية .

ومن مبادئ روسو فى التربية اتخاذ التشويق وحب الاطلاع أساسين للدراسة وتحصيل العلم ، ولذلك عده الناس أول من فتح الطريق الذى سار فيه هربارت وأتباعه . وإليه يرجع الفضل فى توجيه أنظار المربين الى العناية بتربية أعضاء البدن عامة والحواس خاصة فى أيام الطفولة الأولى ، واتخاذ ذلك أساسًا لنهضة العقل وتحصيل العلم فيما بعد . وهذا هو الأساس فى دروس الأشياء التى اهتم بها « بستالوتزى » وأشياعه من بعده ؛ فلا عجب إذاً إن عُدَّ روسو أبا الحركة النفسية فى التربية و بطلها العظيم .

## ( ٢ ) روسو والحركة العلمية فى التربية

رأينا روسو فيما تقدم يدعو الى الطبيعة والاهتداء بهديها ، ويغض من قيمة الكتب فى التعليم ، ويغالى باجتلاء مشاهد الطبيعة وتفهم أسرارها ، ويبالغ فيما لدراسة

الأشياء الطبعية من النفع الجليل فى تربية الأحداث ، ويحض على إدخال التاريخ الطبعى فى مناهج الدراسة ، والتوسع فيه الى درجة لم تكن معروفة من قبل . لذلك لم يكن عجبًا أن عده الناس من أكبر المؤسسين للحركة العلمية فى التربية .

## (٣) روسو والحركة الاجتماعية فى التربية

قرر روسو فى كتابه «إميل» كثيراً من المبادئ التى يصح اعتبارها أساساً للتربية الاجتماعية ، فقد ذهب الى أن التربية الصحيحة هى التى تُخَرِّجُ الإنسان فى صناعة من الصناعات ، وتغرس فى قلبه عواطف الرأفة والرحمة ببنى جنسه ، وتعوّده فوق ذلك مساعدة الضعفاء الذين يحتاجون الى مساعدته ومعونته . ولذلك عده المؤرخون مؤسس الحركة الاجتماعية فى التربية . فالأعمال الصناعية التى نصح بها «بستالوتزى» ، وغرضُ التربيــة الأدبى الذى ذهب اليه هربارت ، والتعليمُ الخلقى الشائع الآن فى مدارسنا ، والدعوةُ الى تربية العجزة والمقعدين وغيرهم من ذوى العاهات ، كل ذلك له أصل يُرْجَعُ اليه فى كتاب إميل .

### انتشار مبادئ روسو فى المدارس

رأينا ما لروسو من اليد الطولى فى وضع الأساس لأنظمة التربية الحديثة ومناهجها وطرائقها ، ورأينا كيف كان الإمام الذى اهتدى بهديه بستالوتزى وهربارت وفروبل وسبنسر وغيرهم من رجال التربية ، إلاّ أن آراءه هذه بقيت مخبوءة زمنًا طويلاً لا أثر لها فى معاهد التعليم ، اللهم إلاّ أثراً ضئيلاً . ففى فرنسا حيث كان لهذا البطل اكبر تأثير فى الأفكار والعواطف ، قد استقبل الناس كتابه بشىء من الريبة والخوف ، ورأوا فيه خروجا على التقاليد المحترمة فى المملكة ، ولذلك حاولت الحكومة اعتقال كاتبه إلاّ أنه لاذ بالفرار . ومهما يكن من شىء فإنه نبه الأفكار على نقص التربية السائدة ودلّ على عيوبها ومثالبها ، ولم يلبث الناس طويلاً بعد ذلك حتى قاموا يطالبون بوضع نظام وطنى للتربية تسير عليه المدارس كما طالبوا بجعل التربية عامة وبالمجان . وفى انجلترا لم تنل مبادئه إلاّ معاضدة يسيرة . أما ألمانيا فكانت أسرع الممالك الى الانتفاع

بآرائه والأخذ بمبادئه ، والفضل فى ذلك يرجع الى « بِزْدَاو » و « سُلْزْمان » و« كَامْب » وغيرهم من رجال التربية العاملين ، فإنهم أسسوا المدارس والمعاهد وساروا فيها على النحو الذى رسمه روسو فى كتابه إميل .

## (٢) بِزْدَاو

مرب ألمانى شهير ، وزعيم من زعماء التربية المصلحين ، ولد فى همبرغ سنة ١٧٢٣ وتوفى سنة ١٧٩٠ . وكان وهو صغير صاحبَ ذكاء وفطنة . ولما رأى أن والده — وكان صانع غدائر — لا يهتم لشأنه ولا يأبه لذكائه ، فر من وجهه واشتغل خادماً فى منزل رجل من الأعيان ، فظهرت لسيده مقدرته العجيبة وذكاؤه النادر ، ولما عرف هذا السيد حقيقة أمره سعى فى إصلاح ما بينه وبين أبيه ، فرجع الى منزل أهله ودخل مدرسة الآداب فى همبرغ ، وبعدها دخل جامعة « لِيبْزِك » حيث أكب على دراسة أصول الدين . ولما أتم دراسته فيها رأى الناس فيه زيغاً عن العقيدة الأرثوذكسية فلم يرتضوه قسيساً ، فترك الكنيسة وأقبل على صناعة التعليم ، فعُهِدَ اليه بتربية أطفال « الهِرْقُون كَوْلِن » ، فأظهر كفاية نادرة المثال ، وقد اتبع فى تعليم هؤلاء الأطفال الشرفاء طريقة المحادثة واللعب ، مستعيناً على ذلك بما فى البيئة من أشجار وأنهار وطير وصخور وأحجار وغيرها من أشياء الطبيعة الكثيرة . ففى تعليم اللغة اللاتينية مثلاً كان يشير إلى الأشياء ويعلم الأطفال أسماءها ويحادثهم فى شأنها . وقد صادفت هذه الطريقة نجاحاً كبيراً ، حتى أصبح الأطفال فى مدة قصيرة يعرفون اللغة اللاتينية فهماً وكلاماً كما يعرفون لغتهم الوطنية .

فى سنة ١٦٦٣ تمكنت مبادئ روسو من نفس «بزداو» وازداد إعجاباً بها ، وأصبح إميل قرآنه الذى يؤمن به ويعتقده . ولقد ساءه أن رأى حال التربية فى ألمانيا كما كانت فى فرنسا فاسدة سيئة الطرائق والمناهج . كانت غرف الدراسة مظلمة قليلة الهواء ، والتربية البدنية مهملة كل الإهمال ، وكان التعليم ثقيلاً والنظام قاسياً ، وكان الأطفال يعاملون معاملة الرجال ، حتى لقد كانت مظاهر الرجولة تراعى فى ملابسهم وجميع شئونهم .

ففى عهد لويس الرابع عشر كان أطفال الطبقة الموسرة يُلزمون ترجيلَ شعورهم وتعطيرها ودهنها ، وكانوا يلبسون ملابسهم على النحو الذى يلبسه الرجال ، يلبسون الجوارب الحريرية والسراويل الضيقة ، ويشدون الخناجر على أوساطهم الى غير ذلك مما يعد عذابًا وجحيمًا للأطفال الذين يميلون الى الحركة والنشاط . رأى «بزداو» هذه الحال فطعن عليها وبين مثالبها ، ووهب نفسه لإصلاحها على النحو الذى أشار اليه روسو فى تربيته الطبعية .

الأزياء فى أوائل القرن الثامن عشر ، وهى تشرح كيف كان الاطفال يظهرون فى صور مصغرة للرجال

فى سنة ١٧٦٨ ألقى محاضرة موضوعها المدارس والعلوم الدراسية وآثارها فى إسعاد الأمم وانهاض الشعوب ، ودعا فيها الأمراء ورجال الدين وأهل الثروة والجاه إلى مساعدته ، وطلب اليهم أن يمدوه بالمال الذى يحتاج اليه فى إصلاح التربية فى البلاد . واقترح فى محاضرته أن تكون المدارس غير تابعة لدين أو مذهب بعينه ، وأن يدير حركة التعليم فى البلاد مجلس وطنى خبير بشئون التربية ، وأن يكون التعليم عمليًّا فى مناهجه ، سارًّا فى طرائقه ، ووعد أن ينشر كتابًا فى التربية الابتدائية يضمنهُ آراءه ويبين فيه وجوه الإصلاح التى يريدها ، فنالت آراؤه استحسانًا عظيمًا ، وحازت قبولاً فى جميع القارة الأوربية ، وآزره كثير من الملوك والأمراء والأعيان وكثير من الذين يعنون بشئون التربية ، فأعانوه بالمال وجمعوا له فى وقت قصير ما يُربى على عشرة آلاف ريال يستعين بها على إنفاذ آرائه . وبعد سنوات ست نشر «بزداو» كتابه الذى وعد به وسماه « التربية الابتدائية » ، وشفعهُ بكتاب آخر فى طرق التربية لإرشاد الآباء والأمهات .

كتبه

( ١ ) كتاب التربية الابتدائية : ظهر هذا الكتاب فى أربعة أجزاء ، وفيهِ مائة من الصور والرسوم التى وضعت لإيضاح موضوعاته، وقد ضُمِّنَ الكتاب كثيراً من مبادئ روسو الطبعية ، وشمل جزءاً عظيماً من آراء كومنيوس وغيره من رجال التربية ، وحوى كثيراً من دروس الأشياء النافعة المفيدة .

( ٢ ) كتاب الآباء والأمهات فى طرق التربية : تضمن هذا الكتاب أيضاً كثيراً من آراء روسو فى التربية الطبعية ، وبين فيه «بزداو» أن الأطفال يميلون بطبيعتهم الى الحركة الجثمانية وسماع الأصوات ، وأوصى باستخدام هذين الميلين فى التربية .

( ٣ ) كتب الأقاصيص للاطفال: بعد أن أخرج «بزداو» كتابيه السابقين، اشترك هو وسُلْزْمان وكامب وغيرهما ، وألفوا جملة من كتب الحكايات والأقاصيص تفيد الأطفال وتناسب مداركهم ويلذ لهم قراءتها ، وضمنوها كثيراً من الموضوعات التهذيبية والدينية والعلمية والطبعية . وأشهر هذه الكتب وأحسنها كتاب « رُبِنْصون كْرُوزو » للمبتدئين ، وهو الكتاب الذى طبعه كامب سنة ١٧٧٩ ، وظنى بالقارئ أنهُ لا يزال يذكر رأى روسو فى قراءة هذا النوع من الكتب .

## مدرسته . مناهجها وطرائقها فى التربية

أفلح بزداو فى استمالة « لِيُو بُلْد» أمير «دِسُّو» إلى آرائهِ ومذاهبهِ فى التعليم ، ولقد كان من إعجاب هذا الأمير بهِ أن عزم على تأسيس مدرسة يتمكن فيها بزداو من تجربة آرائه وإخراجها إلى دائرة العمل . ولم يلبث أن أسس المدرسة فى دِسو ودعاها «حمى الإنسانية » ، فأقبل بزداو على العمل فيها ، ودعا بعض رجال التربية إلى مساعدته ، فقدم إليهِ كامب وسُلْزْمان وغيرهما من الرجال العاملين ، فقاموا إلى جانبهِ وساروا معهُ على مبادئهِ ، وفى زمن قصير حاز المعهد شهرة فائقة فى جميع القارة الأوربية .

وكانت القاعدة العامة التى اتخذها هؤلاء المصلحون أساساً لأعمالهم أن يكون التعليم جارياً على قوانين الطبيعة ، ومعنى ذلك عندهم أن تستمال غرائز الأطفال وميولهم

الطبعية ، وأن يربى الأطفال على أنهم أطفال حقيقة لا رجال فى صور أطفال ، وأن يكون تعليم اللغات من طريق المحادثة والمطالعة بعد ذلك ، لا من طريق دراسة القواعد النحوية كما كان مألوفاً فى الأزمان السابقة ، وأن تجد التمرينات البدنية والألعاب

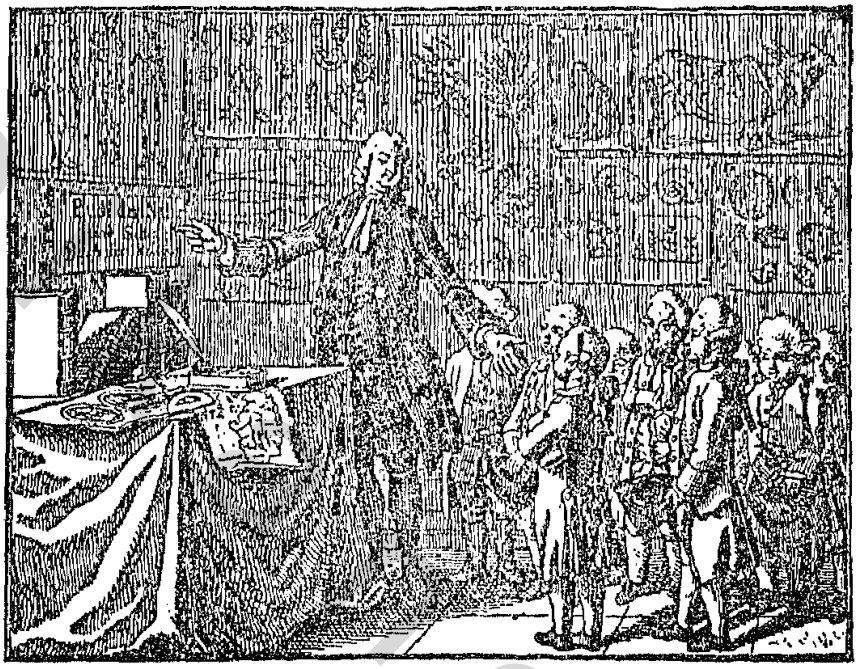

مدرسة طبعية

محلاً واسعاً فى تربية الطفل ، وأن تؤسس التربية الأولى على الحركات الجثمانية وسماع الأصوات ، وأن يؤخذ كل طفل بنصيب من الأعمال اليدوية كالنجارة والبرادة ودرس الغلال على الطريقة التى ذكرها روسو فى الجزء الثالث من كتابه إميل ، وأن تعطى اللغة الوطنية نصيباً من العناية فى التعليم أوفر من نصيب اللغات القديمة ، وأن يكون التعليم عملياً دائراً حول الحقائق المحسوسة والأشياء الملموسة ، لا مقصوراً على ألفاظ تكرر وتعاد .

ولهذا المصلح طرق شائقة فى تعليم اللغات ، فقد كان يعتمد على المحادثة واللعب والصور والرسوم والقراءة فى الكتب المشوقة ، وفى تعليم الهندسة كان يعود الأطفال رسم الأشكال رسماً متقناً بديعاً ، وكان يبتدئ دراسة تقويم البلدان بالمنزل ، ثم ينتقل منه إلى البيئة التى تحيط به ، ومنها إلى المدينة ، ومنها إلى المملكة ثم القارة ، وهكذا ينتقل من دائرة إلى أوسع منها .

### مبلغ نصيب المدرسة من النجاح

كان عدد التلاميذ فى هذه المدرسة قليلاً فى بادئ الأمر، لأن التعليم فيها كان تجريبيًّا، ولأن الآباء كانوا لا يرغبون أن يكون أبناؤهم مواضع لتجاريب غير موثوق بنتائجها فى التعليم. وعلى الرغم من ذلك أخذ عددها يزيد مع الأيام حتى وصل إلى خمسين تلميذاً. وقد أكثر العظماء والنبلاء من زيارتها فسرهم ما شاهدوه من النجاح العظيم، وزاد إعجابهم بهـا حين رأوا ما كان يبدو على وجوه التلاميذ من النشاط والاقبال الشديد على التعليم. قال كانْت: « لا أعد هذه المدرسة عاملاً من عوامل الإصلاح البطىء فى التربية، و إنما أعدها عاملاً من عوامل الانقلاب الفجائى السريع ». ولكن — وأسفاه — قد قدر لهذا المعهد العظيم ألاّ يعيش طويلاً، فقد سقط وانفض الناس من حوله سريعًا وأُغلقت أبوابه سنة ١٦٩٣ قبـل أن يمضى على تأسيسه عشرون سنة، ولهذا أسباب كثيرة منها ما يأتى:

(١) كان آباء التلاميذ وأولياء أمورهم فى ريبة من تلك التربية العامة التى لا تتبع دينًا ولا مذهبًا بعينه، فان هذا النوع من التعليم كان جديداً ومخالفًا للمألوف فى أوقاتهم، ولهذا لم يقبل على المدرسة إلاّ نفر قليل.

(٢) غالى «بزداو» فى تقدير مدارك الأطفال فوضع منهاجًا واسعًا لا يستطيع التلاميذ دراسته فناءوا بحمله، ولقد اعترف بخطئه هذا واضطر إلى اختصار منهاجه فيما بعد.

(٣) لم يكن «بزداو» من رجال الادارة الحازمين، ولم تكن له كفاية فى إدارة مثل هذا المعهد العظيم، فقد كان منقلبًا كثير الأهواء مضطرب العزيمة، يتابع الخيال اكثر مما يتابع الحقيقـة، وكان فوق ذلك ضعيف الثقة بمن معهُ من المعلمين، يرتاب فى كفايتهم و يشك فى أمانتهم، والناس اذا تساندوا فى عمل فالثقة أساس نجاحهم ورائد فلاحهم، فإذا ضاعت الثقة، فليس لهم إلا الفشل والخذلان.

سقط هذا المعهـد بعد أن أمَّل الناس فيهِ أملاً واسعًا، وقدروا له النتائج الباهرة والنجاح العظيم. نعم سقط ولكن بقى نوره ساطعًا وسراجه لامعًا، فقد انبث رجاله

فى جميع أنحاء المملكة الألمانية يحملون المبادئ الحديثة فى التربية ، ويستميلون الناس إلى طرائقهم فى التعليم .

لم يبتدع «بزداو» فى التربية شيئًا كثيراً ، ولكنهُ بذل الوسع فى إخراج آراء المربين قبله إلى دائرة العمل ، وبفضله أصبحت مشاكل التربية سهلة الحل قريبة الفهم . ولو لم يكن له إلا تجاربه التى عالجها فى مدرسته « حمى الانسانية» لاستحق بها وحدها أن يتبوأ مكانه عاليًا بين زعماء التربية فى القارة الأوربية . نعم كانت تجاربه فجة غير ناضجة ينقصها شىء كثير من الروية والثبات ، إلا أنها مع ذلك أحدثت نهضة كبيرة فى التربية . فبفضلها عنى المربون بأبنية المدارس وتجهيزها بالأجهزة النافعة فى الدراسة، وبفضلها اهتم الناس بإعداد المربين والمعلمين وإصلاح طرائق التعليم ، وهى التى قضت على كثير من الأنظمة القاسية والقوانين الشديدة ، واستبدلت بها أنظمة أخرى أقل قسوة وعنفًا .

obeikandl.com